دخول الشام تحت الحكم العثماني

وتأثيره على المراكز العلميّة في جبل عامل

الشيخ د. جعفر المهاجر

(١)

سنة ٩٢١ هـ / ١٥١٥ م وقف الجيش العثماني ، بقيادة سليم الأول في سهل مرج دابق ، إلى الشمال من حلب ، تواجهه جيوش المماليك ، بقيادة سلطانهم العجوز قانصوه الغَوري . وعصفت المدفعيّة العثمانية وبنادق جنودهم الطويلة بفرسان المماليك الأشدّاء . كانت تلك أول معركة على أرض الشام واجهت فيها التكنولوجيا والتكتيكات العسكرية الحديثة المهارة القتاليّة الفرديّة . وطبعاً كانت نتيجة المعركة محسومة سلفاً. وهكذا جثا الشام أمام الفاتح ، فتابع سبيله ليدخل دمشق ثم القاهرة .

يمكن القول أن حدَث مرج دابق وما ترتّب عليه افتتح الطور الرابع من أطوار حياة الدولة العثمانيّة ، التي عاشت ما يقلّ قليلاً عن ستة قرون ونصف . بدءاً من إمارة صغيرة من الإمارات التركيّة الكثيرة ، التي اجتاحت الأناضول تحت شعار نشر الإسلام في الرُّقعة الروميّة ، إلى سلطنة بعد القضاء على الدولة السلجوقيّة الروميّة ، إلى إمبراطوريّة بنجاح السلطان محمد الثاني المعروف بالفاتح في فتح القسطنطينيّة ، إلى الدولة الإسلاميّة الكبرى ، التي يحمل سلاطينها لقب (خادم الحرمين الشريفين) بعد فتح الشام ومصر . حيث أصبحت السيطرة على شبه الجزيرة ، (وفيها الحَرمان) ، خطوة صغيرة حصلت بإعلان شريف مكة خضوعه للحكّام الجُدُد . وتدبير قتل حاكم اليمن من قِبل سلاطين المماليك . لكن اللقب الجديد أضفى على سلاطين العثمانيين احتراماً كبيراً . وكان له أثره البعيد في توجيه سياسة الدولة . نذكر هنا أن فاتح الشام لم يكترث إطلاقاً بالخلافة وبحمل لقب الخليفة ، كما فعل الظاهر بيبرس من قبل . ذلك أن اللقب العريق كان قد أصبح في الغاية من الهوان . وانزوى آخر (الخلفاء) العباسيين في مصر دون أن يلتفت إليه أحد .

لا مراء في أن سيطرة العثمانيين على قلب العالم الإسلامي كانت له آثاره الثقافية الهائلة . فهذه أول مرّة منذ الإسلام تخسر فيها اللغة العربيّة ، بل والثقافة العربية إجمالاً ، الموقع الأول ، بوصفها اللغة الرسميّة ، كما نقول اليوم ، وبوصفها لغة الثقافة ، لحساب لغة أُخرى ، ولحساب شعب عسكر . ولست أعرف أبحاثاً عالجت هذه الإشكاليّة في مختلف تنويعاتها . وطبعاً أنا لم أتقدّم بهذا البحث ابتغاء سدّ الخلل الكبير ، بل أن أهيئ لما يعِد به العنوان . الأمر الذي يطالبني بإيراد تهيئة ثانية .

(٢)

قبل أشهر من مرج دابق كان الجيش العثماني نفسه يقِف في سهل جالديران ، بين بحيرة أرومية وتبريز ، يواجهه الجيش الصفوي الإيراني . ولم تدُم المعركة طويلاً

بفضل المدفعيّة التركيّة الجبارة . وتابع الجيش المنتصر سبيله ، فدخل العاصمة تبريز دون أن يلقى مقاومة تُذكر . لكن إقامته في تبريز لم تطُل لأكثر من ثمانية أيام . انكفأ بعدها مسرعاً نحو بلاده . الأمر الذي ترك الإيرانيين حائرين مدهوشين . وهم الذين كانوا لا يتصورون إلا أن العثمانيين سيجتاحون رقعة الدولة الصفوية الناشئة غنيمة باردة لن تجد مَن يدفعهم عنها .

والحقيقة أن السلطان سليماً لم يكن مهتماً على الإطلاق بمدّ سلطانه شرقاً باتجاه الهضبة الإيرانيّة . بل كانت عينه معلّقة برقعة المماليك الشاسعة ، قلب العالم الإسلامي، بل قلب العالم القديم ، ذات القيمة الاستراتيجيّة الفذّة . ولم يكن غرضه في جاليدران إلا تأمين ظهره وهو يتجه جنوباً صوب الشام .

أنهت معركة جاليدران صراعاً مكتوما على جلد الدب المملوكي قبل صيده . والحقيقة أن الصفويين هم الذين كانوا السبّاقين إلى العمل في هذا السبيل ، لكن على طريقتهم الخاصة ، بوصفهم تنظيماً صوفيّاً ، ذا خبرة واسعة في كسب الأنصار وتنظيم نشاطهم . وهناك من الأدلّة ما يكفي على أنهم نجحوا نجاحاً باهراً في نشر تنظيمهم في مصر ودمشق وحلب والأناضول ، وخصوصاً في هذه الأخيرة . والحقيقة أن السلطان سليم فرض نفسه على العرش وأجبر والده الضعيف ، بايزيد بن محمد الفاتح ، على الاعتزال ، على أثر الثورة الهائلة التي نشبت في الأناضول بقيادة وتدبير (شاه قُلي بابا تكلو) التركماني ، أحد مُريدي الشاه إسماعيل الأول المخلصين . الذي عمل على تنظيم وتوجيه الاتجاهات الشيعية في الأناضول ، ونجح في ذلك فعلاً . وانتصر على حملتين متتاليتين ، قبل أن يُقتل في الحملة الثالثة التي رأسها الصدر الأعظم بنفسه . لذلك كان من أول الأعمال التي قام بها السلطان سليم قبل أن يتجه إلى جاليدران ، تنظيم مذبحة هائلة للشيعة في أنحاء مملكته ، سقط ضحيتها أربعون ألفاً من الرجال . أمّا النساء والأطفال والشيوخ ، فضلاً عن أقرباء القتلى وأصدقائهم ، فقد دُمغ كلٌّ منهم على جبهته بالحديد المُحمى ليُعرف إلى الأبد ، ثم أمر بنفيهم في أنحاء أوروبة ، وخصوصاً في مكدونية . كما أنه أمر بمنع استعمال اللغة الفارسية في أنحاء مملكته . وقد كانت حتى ذاك لغة الثقافة والديبلوماسيّة . أما اللغة التركّية فقد كان استعمالها مقصوراً على العامّة والسوق وما إلى ذلك .

(٣)

غرضنا من إيراد هذه التهيئة بفقرتيها بيان عناصر الذاكرة التاريخيّة القريبة التي ركّبت سياسة العثمانيين من المراكز العلميّة التي كانت عاملة في جبل عامل . منذ أواسط القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي . وربما كان من المستحسن ، بل الضروري ، أن نُضيف إلى عناصر هذه الذاكرة القريبة عناصر أُخرى بعيدة ، جَماعها أن تجربة الشعوب التركيّة مع الشعوب الإسلاميّة ومع الإسلام ، كانت دائماً تجربة إشكاليّة ، منذ دخولهم في الإسلام راضين ، في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي . أضف إلى ذلك ، أن دخولهم هذا بدأ محصوراً ومُحاصراً بمذهب واحد هو المذهب الحنفي . ولذلك ، ربما ، لم يفهموا من الحق في الاجتهاد والاختلاف حتى المستوى البائس الذي (فهمه) ، أو على الأقل ، عمل به المماليك أثناء فترة حكمهم الطويلة . ومن ذلك أن الظاهر بيبرس ، المؤسس للحكم المملوكي فكرياً وعملانيّاً ، تقبّل فكرة وجود أربعة مذاهب متوازية . أما العثمانيون فقد حصروا المناصب ذات الصفة الدينية بمذهبهم وحده . ومن أطرف الظواهر التي ترتّبت على

هذه السياسة ، تحوّل عدد غير قليل من الفقهاء السنّة في الشام ومصر إلى المذهب المحظوظ ، محافظة على حظوظهم ، ممن يجد الباحث ذكرهم في (الكواكب السائرة) للغَزّي . على أنني أرجو أن لا يُفهم من كلامي أنني أزعم أن المماليك كانوا أوسع أفقاً أو أحسن فهماً لحق الخلاف والاختلاف . كلا ، كل ما في الأمر أنهم كانوا جنوداً جاهلين . بل كان من أُمرائهم وسلاطينهم مَن لا يُحسن العربية إلا لماما . و كان كل همهم محصوراً في حراسة الامتيازات التي تتمتّع بها الطبقة العسكريّة التي يمثلونها . ولذلك فقد تركوا أمر الاختلاف في العقائد والفقه وبلبالها إلى أربابها ، يذهبون بها حيث يحلو لهم . شرط أن لا يقتربوا من الحدود السلطويّة ، التي كانوا يحرسونها بكامل اليقظة . والتي كان أرباب المذاهب يعرفونها جيداً . لذلك فإن النهضة العلميّة في جبل عامل قد انبعثت ومارست نشاطها مدة قرنين بكامل الحريّة . ولم يُسجّل إطلاقاً أدنى اعتراض أو قمع لها من جانب السلطة المملوكية . نقول هذا مع علمنا التام بأن السلطان برقوق بن أنس اليلبغاوي ، أول سلاطين المماليك البرجيّة ، هو الذي أمر بقتل باعث النهضة العامليّة ومؤسسها محمد بن مكي الجزيني (قُتل : ٧٨٦ هـ / ١٣٨٤ م) . لكن هذه الملاحظة تؤكّد القاعدة ولا تُلغيها . ذلك أن عمل الجزيني المشار إليه جاء في سياق مشروع سياسي . كما أن فكره العملاني انطوى على عناصر ذات بُعد سياسي تتعارض تماماً مع قواعد الحكم التي اصطنعها السلطان بيبرس . وعاش عليها أخلافه . وتفصيل هذه الإشارة في دراستنا عن الجزيني في كتابنا (ستة فقهاء أبطال) .

(٤)

أعتقد أن من السهل علينا الآن أن نفهم ما جرى على المراكز العلميّة العامليّة ، بعد قرنين من الازدهار الحرّ ، أنتجت أثناءهما علماً وأدباً جمّاً ، ما يزال بعضه حيّاً وموضع تأمّل حتى اليوم . تلك الأيام الرائعة التي تمتّعت فيها بالحريّة قد ذهبت إلى غير رجعة. وحلّ الخوف والتهديد اليومي ومعاناة الشعور الدائم بالمراقبة الدقيقة من قِبَل أجهزة السُّلطة محل الطمأنينة والانصراف التام إلى الدرس والتدريس والتصنيف . ممّا نجد الإشارات إليه حتى اليوم في الأدبيّات التي صدرت عن غير واحد من رجالات تلك المراكز . وهاهي الآن قد وقعت بين المطرقة العثمانيّة والسندان الصفوي . دون أن يكون لها يد في هذا الصراع القاسي على السلطة . الذي مُنح عناوين مذهبيّة .

لكن الأبعد من هذه الانطباعات وأمثالها ، على أهميتها ووثاقتها ، هو التأثير الموضوعي لِما وصفنا من متغيّرات . أُشير خصوصاً إلى أنه بعد ربع قرن تقريباً من الحكم العثماني لم يكن قد بقي من المراكز العلميّة العامليّة سوى جُباع . وهي ظاهرة يمكن أن نفهمها بوصفها انكفاءً باتجاه المركز حيث الكثافة السكانيّة الشيعيّة والطبيعة الجبليّة . أما المراكز التي غدت الآن تاريخيّة : جزين ، عيناثا ، مشغرة ، الكرك ، فقد كانت كلها تستقرّ في الأطراف . وهذا الانكفاء ارتكاس طبيعي على الخوف والقلق ، تسلكه الجماعات في مثل الأحوال التي وصفناها .

كانت جُباع النبضة الأخيرة في حياة النهضة في جبل عامل . و عمل شيخها الأكبر زين الدين بن علي على إبقاء شُعلة جُباع مضيئة . وفي هذا السبيل زار العاصمة إستامبول قاصداً الاجتماع بالسلطان ورجال الدولة ، ابتغاء تخفيف حدّة العداء نحو وطنه . وقضى فيها عدّة أشهر ، التقى أثناءها عدداً من كبار الفقهاء ، ونال إعجابهم وتقديرهم . لكن النتيجة العمليّة التي تمخّضت عنها الزيارة أنه أُلزم الإقامة في بعلبك

، أي أنه أُبعد عن ميدان نشاطه الطبيعي . وبالفعل أقام فيها سنتين وأشهراً يُدرّس ويُفتي على المذاهب الخمسة . ونجح في ذلك أيما نجاح ، ولقيت خطوته الفريدة إقبالاً واسعاً من الناس . الأمر الذي أثار غضب السلطة ، التي رأت في خطوته الرائدة ما يُعاكس سياستها ، فعملت على إبعاده . وبعد أن عاد إلى بلده والعمل في ميدانه الطبيعي ، بدأت فترة من المطاردة والتخفّي طالت عشر سنوات . كان جلاوزة السلطة أثناءها يلاحقونه بعناد من بلد إلى غيره . فيما كان أهل جبل عامل يتآزرون على تضليلهم . وفي هذه الفترة وضع أكثر مؤلفاته . وفي وقت ما من السنة ٩٦٤ هـ / ١٥٥٦ م على الأرجح غادر وطنه خفية قاصداً مكة بقصد المجاورة حتى يأتيه الأجل ، بعد أن ملّ حياة التخفّي وعدم الاستقرار . ولكن السلطة اكتشفت مكانه بطريقة ما ، فقبضت عليه في المسجد الحرام ، وساقته إلى العاصمة حيث أُورد مورد الهلاك .

أثار قتل الشيخ زين الدين ضجة هائلة من إيران إلى مصر . فقد كان عالماً جليلاً ، ذا انبساطيّة فكريّة مدهشة . ومن ذلك أنه هو صاحب النظريّة الفريدة التي تقول ، إن الفقيه لا يحقّ له الإجتهاد إلا بعد أن يطّلع على جميع المذاهب . كما كان معروفاً جيداً في دمشق والقدس والخليل والقاهرة . وعلى الأثر لجأت أجهزة السلطة العثمانية إلى إشاعة فذلكة تقول ، إن الرجل المكلّف بسوقه إلى إستامبول هو الذي قتله أثناء الطريق . وأنها انتقمت منه بقتله . وهي رواية ثبت كذبها . وأنها وُضعت بدهاء ابتغاء تبرئة ساحة السلطان سليمان الأول ، المعروف بالقانوني ، من وزر الجريمة .

من أبرز آثار هذه الجريمة النكراء والغبيّة معاً ، أنها كانت بمثابة النذير لعلماء جبل عامل بما ينتظرهم . فانطلقوا بالعشرات هاربين صوب إيران الصفويّة ، التي كانت بأمسّ الحاجة إليهم . وانتشروا في مدنها وبلدانها حاملين فكراً جديداً ، هو ثمرة قرنين من التطوّر الهادئ في وطنهم الأصلي ومع الوقت منحوا إيران ، ذات التركيبة الأقوميّة المتنافرة ، الرابط الروحي التي كانت في أمسّ الحاجة إليه . وهكذا قدّم العثمانيون لأعدائهم الصفويين معونة أساسية مجّاناً و من حيث لا يحتسبون . لكن الثمن الباهظ دفعه جبل عامل ، من حياة عقليّة ازدهرت فيه مدّة قرنين . صارت مراكزها الآن جزءاً من التاريخ الذي نأمل أن يعود .